مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية بمكة المكرمة

مجلة

مجمع اللغة العربية

على الشبكة العالمية

السنة الثامنة

العدد الثاني والعشرون، رجب ١٤٤١هـ

فبراير– مارس ٢٠٢٠م

مجلة علميّة، محكَّمة، تُعنى بنشر البحوث والدّراسات في اللّغةِ العربية،

ونشرِ قرارات المجمع وآرائه وتنبيهاته ومقالاته وأخباره.

(تصدرُ مرةً كلَّ أربعة أشهر)

مركز البحوث والتواصل المعرفي
Center for Research & Intercommunication Knowledge

البحث اللغوي بين شقرة الغربي، وسواد شعر العربي

د. عباس علي السوسوة[١]

غرضنا من هذا البحث عرض عدة صور من أعمال لغويين غربيين، لقيت احتفاء من العرب، مع أن فيها نقائص فادحة، وبالمقابل الإشارة إلى أعمال عربية لقيت تجاهلا أو قسوة في النظر إليها وعدم التسامح معها، مع أن شروط البحث العلمي عامة ينبغي أن تطبق على الجميع.

عنوان المقال محتاج إلى تحرير؛ المقصود بالشطر الأول منه الأثر النفسي الطيب لكل ما يكتبه الغربيون -والأمريكيون ضمنهم- على اللغويين العرب المحدثين، استعرنا شقرة الشعر لغلبتها على ألوان شعورهم، وبالتأكيد يتبع ذلك زرقة العيون وخضرتها وبياض البشرة. ومن نافلة القول أن في العرب شقرا وبيضا، غير أن سواد الشعر وسمرة البشرة هي الغالبة عليهم.

خلق الله تعالى البشر متساوين في أصل الخلق وفي نوازع السلوك والنفس، لا يختلف في ذلك أشقر عن أسمر، ولا أوربي عن عربي أو إفريقي أو صيني. إنما يحدث التفاوت بحسب التنشئة الاجتماعية والثقافية بمعناهما الشامل في الأسرة

(١) أستاذ اللسانيات في جامعة الملك خالد، وعضو المجمع اللغوي بمكة.

والحي والمدرسة وبقية مؤسسات المجتمع. ولا شك أن مجتمعات الشقر أشد تنظيما ورسوخا في التقاليد المالية والعلمية من غيرها؛ ولذلك تحكموا في بقية البشر في كل النواحي: سياسيا واقتصاديا وعلميا الخ. أما التأثير في جانب البحث اللغوي فواضح؛ فالموضات والنظريات والمناهج تبدأ من عندهم، ويتسابق باحثونا إلى تلقفها واعتناقها والتبشير بها وتطبيقها دون نظر نقدي عادة؛ اعتقادا منهم في كمالها لأنها صادرة عن السادة الشقر. وهذا أمر قد ذكره باستفاضة ابن خلدون في مقدمته "فصل في أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده. والسبب في ذلك أن النفس أبدًا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه... بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصَّل اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به... ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل في سائر أحواله"(١).

ولا نشك في أن حالة البحث اللغوي–وغيره– عند الشقر أفضل من السمر بصفة عامة، وهذا لا يحتاج إلى دليل بل يحتاج إلى تذكير؛ فجامعاتهم ومراكز بحوثهم مؤسسية منضبطة، فيها حرية في التفكير أكثر مما عندنا، وفيها روح الفريق الواحد، وفيها أمور إيجابية كثيرة جدا. لذلك فهي تنتج العلم وتصدره.

(١) انظر: أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ص ٥١٠.

ومن البديهي أن في هؤلاء الشقر نقائص البشر، ومنها أنهم تجاوزوا في أمور كثيرة الحاجي إلى الكمالي- بلغة ابن خلدون - بل إن بعض مشاهيرهم صار إلى الترف والسرف، ولو فكر عربي أن يفعل ما فعله لاتهم بقلة الذوق واضطراب المخ، ولحجر عليه في مصحة عقلية. انظر مثلا إلى ما فعله اللساني الفرنسي ميشال أريفيه في كتابه (اللساني واللاوعي)[1]. حيث قلب الأمور فجعل فردينان دي سوسير (ت١٩١٣م) مكان النفسي جاك لاكان الذي سيأتي بعده بأربعين عاما على الأقل، ولم يكتف بذلك فأفرد عدة صفحات للضراط والضارطين- أكرم الله القارئين-سماها الطقطقة والمطقطقين! وهو أمر لم يستنكره المترجم الفاضل ولا من قرأه من بني جلدتنا.

فإذا استبان لنا في هذا الجانب أنهم - جماعات ومؤسسات- أفضل بكثير منا، بل إن (أفضل من) في هذا السياق تجعل المقارنة كقول الشاعر:

ألم تر أن السـيف يزري بقـدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

أما من الناحية الفردية- وهي الغرض الأساسي من بحثنا- ففي الأمر نظر؛ ذلك أن في السمر أفرادا أفذاذا مجتهدين، صبورين على البحث ومتاعبه، قادرين على الاجتهاد، أخرجوا أعمالا فيها فائدة عظيمة للبحث اللغوي على الرغم من اعتمادهم على أنفسهم أولا وأخيرا، دون دعم من مؤسسات، بل ربما قوبلت أعمالهم من بني جلدتهم السمر بالتجاهل التام، وربما صارت غنيمة لكل ناهب وسارق دون نكير.

(١) ميشال أريفيه: اللساني واللاوعي، ترجمة محمد خير البقاعي، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت٢٠١١.

خذ عندك العالم الجليل المرحوم محمد عبد الخالق عضيمة[1] في عمله (دراسات لأسلوب القرآن الكريم) في أحد عشر مجلدا، قضى في إنجازه خمسة وعشرين ٢٥ عاما، اعتمد على كل ما وصل إليه من كتب النحو والصرف والقراءات القرآنية وكتب التفسير والأمالي وغيرها. وهذه قبل عصر الحاسوب معظمها غير مفهرس، وما فهرس لا يستطيع استنطاق ما فيها غير العالم الجهبذ. المهم أن عُضيمة توصل إلى نتائج كثيرة كان ينبغي أن تغير كثيرا من المسلمات عند اللغويين العرب، للأسف فتأثيره عليهم ضعيف جدا؛ لانصرافهم عنه، وتجاهله. فما أكثر الرسائل الجامعية التي اتخذت من القرآن الكريم مدونة للبحث في جوانب نحوية وصرفية! ولا وجود لهذا العمل في قائمة مراجعها، فالدارسون يظهرون كأنهم أبناء بجدتها. طبعا لا نقول بتوقف الدراسات اللغوية القرآنية بعد كتاب عضيمة، بل نقول بوجوب الاستفادة منه ومواصلة البحث من حيث انتهى. افرض أن المؤلف –عضيمة أو غيره– كان أبيض أزرق أشقر، إذن سيكال له المديح الذي لا ينتهي، وسيشاد بعبقريته، وحسبنا الله ونعم الوكيل!

والأشقر إن أصاب أو أخطأ فخطؤه مغفور، أما الإصابة عنده فهي الأصل، بل إن خطأه ليس خطأ إلا عند زملائه الشقر فحسب. وإذا جاء بعمل فيه جهد وهذا الجهد مفتقد للهدف ومن ثم فنتائجه غير ذات بال، فإن عمله الغث لا يذكره السمر بسوء.

وسنعرض –غير ما قدمنا– لبعض الحالات الدالة، دون قصد للاستقصاء.

***

(١) محمد عبد الخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القاهرة: دار الحديث، ١٩٧٥، ١١مج.

أولًا: عن أطلس برجشتراسر اللغوي لبلاد سوريا وفلسطين، ١٩١٥م.

جوتهلف بِرجِشتراشر (١٨٨٦-١٩٣٢) مستشرق ألماني، حصل على الدوكي[١] من جامعة ليبزج ١٩١١، عن "استعمال حروف النفي في القرآن الكريم" وحاضر في عدة جامعات ألمانية[٢]، وفي ١٩٢٩ دعته الجامعة المصرية لإلقاء محاضرات عن "التطور النحوي للغة العربية" ثم في ١٩٣١ دعته لإلقاء محاضرات عن " نقد النصوص ونشر الكتب" فأما كتابه عن التطور النحوي للعربية، فأكبره السمر أيما إكبار، في حين أنه ليس في النحو ولا في تطور اللغة العربية نحويًّا، بل في موضوعات في العربية شتى صوتية وصرفية ونحوية من وجهة نظر مقارنة، تقارن هذه الظواهر في العربية في إطار فصيلة اللغات السامية الأخرى من أكادية وآرامية وعبرية وغيرها... والنقل من هذا الكتاب والإشارة إليه كثير، مع أنه لم يسر بالمقارنات إلى مداها المتوقع، ولم يبحث ظاهرة في العربية بحثا تاريخيا من أقدم نصوصها، أو في بعض مراحل حياتها. كذلك يشير إليه الباحثون ويشيدون بعمله "أطلس اللهجات في بلاد الشام". هذا العمل قام به بنفسه في عام١٩١٤، بتمويل مع جامعة ليبزج؛ فسافر إلى تركيا ومنها

(١) الدوكي اختزال للدكتوراه والماجي اختزال للماجستير، مثلما نختزل دكتور إلى دُك وبروفيسور إلى بروف، فاحفظه فكل حافظ إمام.

(٢) انظر في جهوده موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ومحمد عوني عبد الرءوف: جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة، المجلس الأعلى للثقافة بمصر ٢٠٠٤، ورمضان عبد التواب: مدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٩٧، ص ١٦٤-١٨٥. وعن هذا الأخير نقلنا المعلومات عن هذا الأطلس.

إلى سوريا، متنقلا بين بلدانها، باحثًا عن اختلاف اللهجات فيها، في حلب ودمشق ومعان وعمان والكرك وفلسطين وبيروت. وهذه الرحلات تمت في خمسة وأربعين (٤٥) يومًا فقط! والمعلوم أن دراسة اللهجات تقتضي مساكنة أهلها الناطقين بها في موطنهم نحو شهرين على الأقل، هذا مع الحرص على أن تتوفر في الرواة المأخوذة عنهم أن يكونوا ناطقين أصليين بها، وألَّا يكونوا من ذوي الثقافة اللغوية، وأن يسلموا من العيوب النطقية... إلخ. (١)

المهم أن أطلسه في اثنتين وأربعين٤٢ خريطة تفصيلية وواحدة إجمالية، مع شرح لغوي في كتاب مستقل، وقد ذكر هو نفسه أنه اعتمد على حكاية (الفلاح والثور والحمار والديك) بصيغتها الدمشقية، (٢) وأعاد كتابتها حتى يبتعد عن الصيغ الفصيحة فيها، وعرضها على راو دمشقي فأقرها، ثم كان يلقيها في مدن وقرى أخرى يطلب منهم ما يقابلها في لهجتهم. فكان هناك اختلاف في نطق الكاف النهائية ما بين كاف وتش وتس، ونطق ضمير المتكلمين نحنا وإحنا ولحنا وحنّا، وما يقابل الظرف الآن: هَسَّع وهساع وهَلَّق وهلأ وهلقت إلخ.

والعجيب أنه تحدث بنفسه عن نواقص عمله من حيث قصر المدة الزمنية مع طول المسافات (لاحظ أنه في بداية القرن العشرين ولم يكن هناك طيران)،

(١) انظر بحثنا: "دراسة اللهجات في الجامعات السعودية نظرة عن قرب"، العدد ١٦ مجلة مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، ص٢٩١وما وبعدها.

(٢) هذه الحكاية أشهر نصوصها المكتوبة ضمن (ألف ليلة وليلة).

وعدم الفهم الصحيح من الرواة، واضطراره إلى تقصير النص الملقى على الرواة في أحايين كثيرة! ولكن للألماني رب غفور.

***

ثانياَ: يوهان فِك: "العربية دراسة في اللغة واللهجات والأساليب" ترجمة عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٥١م، (٢٦٠صفحة)

ليس للمؤلف الألماني سوى كتابين: (العربية) و (الدراسات العربية في أوربا). وهذا الكتاب الذي سنعرض له استفاد منه جميع المؤلفين في تاريخ انتشار العربية منذ الفتوح الإسلامية حتى دخول المغول بغداد (عام ٦٥٦هـ) وإن كانت الاستفادة بنسب متفاوتة، كما استفاد منه كثير من المؤرخين العرب لهذه الحقبة، وكذا المؤرخون للأدب العربي بحسب العصور والحقب، وبعض مؤلفي الكتب التي حملت في عناوينها ترتكيب (فقه اللغة).

الكتاب في تمهيدٍ وثلاثة عشر فصلًا يصعب تلخيصها في سياقنا هذا، سنكتفي بذكر عناوينها: الروابط اللغوية في عهد الدولة العربية ١-١٣٢هـ، عربية الدولة ولغة الشعب في أوائل العصر العباسي ١٣٢-١٧٠هـ، اللغة العربية في عصر هارون الرشيد ١٧٠-١٩٣هـ، العربية المولدة، الروابط اللغوية في عصر المأمون ١٩٨-٢٣٥هـ، العربية تَصير لغة الأدب الفصحى في النصف الثاني من القرن الثالث، وعربية الأدب في القرن الرابع، العربية ولهجات البدو في القرن الرابع، العربية واللغة المولدة في القرن الرابع، استعمال اللغة الدارجة في أشعار القرن الرابع، وصف المقدسي للصلات اللغوية في المحيط الإسلامي إبان القرن

الرابع، اللغة العربية في عهد السلجوقيين، عود على بدء. وألحق المؤلف بكتابه دراسة عن "اللحن" ودلالاته المختلفة (ص٢٣٥-٢٤٥).

ونلاحظ على هذا العمل العظيم ما يلي:

أولًا: أن صاحبه ألماني اللغة والجنس وقام - أيامها وحتى أربعين٤٠سنة فيما بعد- بعمل ما لم يقم به أبناء العروبة، فجعل باحثينا المحدثين مشدوهين به، يرددون ما فيه من آراء دون نقد، كأنه عمل غير بشري، إلا ما كان من الزميل الدكتور أحمد محمد قدور الذي انتقد-بحق- مفهوم العربية المولدة عنده. وربما كان انتقاده لاعتقاده بكمال الترجمة العربية ومطابقتها للأصل الألماني، مع أن (المولدة) لم يكن التعبير الذي أراده، بل نجده (العربية الوسطى) عند منتقديه الأوربيين. وقد أفادنا الزميل أ. د عبد المنعم جدامي أن د. حلمي خليل في كتابه (المولّد في اللغة العربية) كان سابقًا لقدّور في هذا الانتقاد، وكلاهما حمّل المؤلف خطأ المترجم(١).

ثانيا: أن المؤلف أخلص النية والجهد فاستفاد من المكتبة العربية بكل ما فيها من كتب مطبوعة -حتى عصره- فوصلت إلى أكثر من مئة وثمانين ١٨٠ كتابًا، بعض هذه الكتب يتكون من مجلدات ضخمة ذات عدد، كما استفاد من الدراسات التي قام بها المستشرقون، عامةً كانت أو جزئية، ومن فهرستهم لما يحققون من مطبوعات عربية، وما يصنعون من مسارد لألفاظها.

(١) أفدنا ذلك من بحث الزميل أ.د عبد المنعم السيد أحمد جدامي "مفهوم العربية الوسيطة عند المستشرقين الباحثين في تاريخ اللغة العربية"، مجلة جسور، العدد الرابع ص١٠-١١ (٢٠١٦).

ثالثًا: أنه درس انتشار العربية في أرجاء المعمورة منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى نهاية القرن الخامس الهجري، وكان تركيزه على قلب الخلافة الإسلامية ومشرقها (العراقين وفارس) أكثر من تركيزه على غيرهما.

رابعًا: لم يكن منتظمًا في دراسته لأي ظاهرة لغوية دراسة تتبعية كما تقضي بذلك اللسانيات التاريخية، وربما كلفناه شططا إن طلبنا منه ذلك، ولم نقم به نحن أبناء العروبة.

خامسًا: جاء بمفهوم العربية المولدة /الوسيطة الذي كان مضطربًا في توضيحه، فكان يلتبس باللهجات الدارجة، وأحيانًا بالفصحى التي فيها ظواهر قليلة الشيوع في الشعر القديم.

سادسًا: في الكتاب آراء غير صحيحة -في رأينا- بعضها علق عليه المترجم، وبعضها لم يعلق عليه. ومما لم يعلق عليه ما يأتي:

أ- ص١٣. أن الشاعر سحيم عبد بني الحسحاس كان معاصرا للرسول! في حين أنه لم يكن كذلك، بل قتل في خلافة سيدنا عثمان بن عفان، حتى في المصادر المذكورة في الهامش.

ب- ص٣٧-٣٨. أن الشاعر الطرماح الطائي كان يدخل ألفاظ النبيط في شعره اعتمادًا على حكم الأصمعي الراجح فيه! وفي الكميت! وقد رددنا هذه الفرية في كتابنا (فقه اللغة والثقافة العربية) فراجعه. غير أننا نقول إن الأصمعي لم يكن في نقده نزيهًا؛ فهو يرفض الظاهرة في شعر الكميت ويقبلها! - وهي هي - في شعر ابن أحمر الباهلي، ويرفض الظاهرة في شعر ذي الرمة لكنه يقبلها في شعر عبدة بن الطبيب.

ت- ص١٧٣. يرى أن حذف أداة الاستفهام في بيت للمتنبي من ظواهر العربية المولدة. والصواب أن الاستفهام بغير أداة تشبه (هل) أو الهمزة في العربية موجود في كل لغات العالم التي نعرف؛ إذ إن للاستفهام تنغيما غير تنغيم الخبر. كذلك رصد النحاة هذه الظاهرة عند شعراء في القرنين الأول والثاني كعمر بن أبي ربيعة والكميت بن زيد.

ث- ص٢١٥. ذكر أن اسم الموصول القديم في اللغة الشعبية قد تحول إلى الصيغة الجامدة (إللي) ولم يذكر لذلك مصدرا ولا شاهدا.

ج- ص٢٤١-٢٤٢. استطاع أحد حواريي الجاحظ وهو أبو حيان التوحيدي أن يحاول! قلت: كيف يكون من حواريه ولم يعاصره؟ توفي الجاحظ ٢٥٠هـ وتوفي الحواري إما في ٤١٤أو ٤٠٠هـ.

إن للعرب أبحاثا قيمة في مجال رصد التغير الدلالي في العربية، سنقف عند واحد منها وهو (العربية الفصحى المعاصرة، دراسة في تطورها الدلالي من خلال شعر الأخطل الصغير) لأحمد محمد قدور، الدار العربية للكتاب بتونس ١٩٩٣م. ص٤٠٤-٤٣٠.

وهذا الكتاب على قيمته لا يلتفت إليه الباحثون العرب لأن كاتبه عربي. اختار المؤلف أثرا شعريا متكاملا لدراسة التطور الدلالي في الفصحى المعاصرة هو شعر الأخطل الصغير (بشارة الخوري ١٨٨٥-١٩٦٨م) ومد التوثيق إلى دواوين ومجموعات شعرية وكتابات إبداعية ودراسات أدبية تقف عند حدود عام ١٩٨٥م. طبق المؤلف أفكارا لسانية كثيرة، فهناك نظرية السياق، وقوانين التطور الدلالي، والحقول الدلالية وأنواع الدلالة. كان هذا في تمهيد وثلاثة فصول

جعل فيها المواد المدروسة في أربعة حقول: السياسة والحضارة والعلم والثقافة. فكان عدد الألفاظ المدروسة ١١٥لفظًا. وهذا العمل ليس مبرأً في رأينا من نواقص وأخطاء. لكن بيان ذلك ليس من غرض هذا البحث.

ومن الكتب التي نَحَت في دراسة العربية الفصحى منحى غير مسبوق كتابنا (العربية الفصحى المعاصرة وأصولها التراثية، دار غريب في القاهرة ٢٠٠٢م، ٣٢٧ص) لأنه لم يهتم بالألفاظ بل ببناء الكلمة وبناء الجملة. الكتاب في تمهيد يسعى لتحديد مفهوم العربية المعاصرة، ثم كان القسم الأول عن دراسة الفصحى المعاصرة وتاريخها واتجاهات هذه الدراسات، ويبين أن الدراسة التاريخية التي تتتبع الظواهر التركيبية في الفصحى المعاصرة عبر القرون ليست موجودة عند كل هذه الاتجاهات، وهو ما يحاول هذا الكتاب القيام به.

ثم كان القسم الثاني عن الظواهر الصرفية، فدرس الاشتقاق والمشتقات، والتركيب وصوره، والجمع بأنواعه، والنحت، والتركيب الأوائلي، والنسب والمصدر الصناعي، وتعريف الألفاظ المبهمة.

ويأتي القسم الثالث عن الظواهر النحوية في عدة فصول، فيدرس الموقعية، والمصاحبة، والإعراب، والمطابقة، والتكرار في مكونات الجملة، والربط، والفصل بين المتضامين. وقد بلغت مصادر الكتاب ثلاث مئة وأربعة وخمسين مرجعا ٣٥٤. غير أن هذا الكتاب باستثناء عرضين موسعين له، والنقل منه في ثلاث رسائل جامعية مغاربية، لا يكاد يذكر عند الباحثين العرب الذين طالما شنعوا على علماء العربية القدامى أنهم لم يدرسوا أي ظاهرة لغوية دراسة تاريخية.

***

ثالثًا: كيس فرستيخ: العربية [تاريخها ومستوياتها وتأثيرها] ترجمة محمد الشرقاوي، المجلس الأعلى للثقافة بمصر ٢٠٠٣م، (ص٢٨٢-٣٠٤).

المؤلف أستاذ الدراسات العربية في جامعة نيمخن بهولندا، ومن كتبه التي أثارت كثيرا من الجدل، واهتم به العرب أكثر من العجم " عناصر يونانية في النحو العربي" وله ترجمتان إلى العربية. ومازال العرب يختصمون حول أفكار الكتاب، في حين تبين للمؤلف نفسه أن كثيرا من العناصر التي زعمها يونانية ليست كذلك، بل هي عربية وردت عند نحاة الطور الأول الذي على رأسه عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت ١١٧هـ) وعند نحاة الطور الثاني كالخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ) وسيبويه (ت ١٨٠هـ). وحينها لم تكن كتب أرسطو وغيره في المنطق والنحو وما يتعلق به قد ترجمت أصلا، بل لم يكن التراجمة السريان قد ولدوا!

كتب ذلك في بحث ونشره، ولم يسع إلى طباعة كتابه (عناصر) ثانية، في حين مازلنا ندور حوله بين مؤيد ومعارض. وحسبنا الله ونعم الوكيل!

أما كتاب (العربية) فقد قارب عدد المصادر والمراجع فيه خمس مئة. وفي الكتاب ثلاثة عشر فصلا ١٣، في كل فصل عدد من المباحث يصعب علينا في هذا السياق أن نعرض لأبرز محتوياتها ويكفي أن نذكر عناوينها وهي: ١. تطور دراسة العربية ٢. اللغة العربية بين اللغات السامية ٣. مراحل اللغة العربية المبكرة٤. اللغة العربية في الجاهلية٥. نشأة العربية الفصحى الكلاسيكية٦. ظهور العربية المولدة٧. العربية الوسيطة٨. دراسة اللهجات العربية٩. اللهجات

العربية١٠. نشوء الفصحى المعاصرة ١١. الازدواجية اللغوية والتعدد اللغوي١٢. اللغة العربية لغة أقلية١٣. اللغة العربية لغة عالمية.

من الواضح الجهد الكبير الذي بذله المؤلف الهولندي في أكثر فصول الكتاب، علاوة على النظرة الناقدة، والاتساع والشمول في المساحتين الجغرافية والزمنية، حتى إن المترجم أضاف إلى العنوان الأصلي [تاريخها ومستوياتها وتأثيراتها] وهي من حسناته القليلة. غير أن هذا الجهد خالطه أخطاء كأي جهد بشري. ولنا عليه هذه الملاحظات:

أولا: ركز الكتاب على انتشار العربية، ولم يعرض لظاهرة واحدة من ظواهر البنية بالدرس التاريخي، وهو عكس ما فعله الدانمركي أوتويسبرسن (١٨٦٠-١٩٤٣) في كتابه عن قواعد اللغة الإنجليزية الحديثة.

ثانيًا: قلما نجد إشارة إلى باحث عربي محدث سبقه في دراسة بعض الموضوعات؛ فلم نجد إشارة إلى كتابي محمود فهمي حجازي: العربية عبر القرون، وعلم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، وهما منشوران أول السبعينات من القرن العشرين، والمطلع عليهما يجد أن أكثر ما ورد في الفصول: الثاني والثالث والرابع والخامس لا يكاد يختلف كثيرًا عما فيهما. كما أن الحديث عن العربية في مصر بعد الفتح الإسلامي مشابه لما في كتاب أحمد مختار عمر (تاريخ اللغة العربية في مصر-١٩٧٠م) أو لما نشر في أطروحته للدوكي من جامعة لندن في الموضوع نفسه.

ثالثًا: في الكتاب تعميمات خاطئة ومعلومات مغلوطة، منها:

أ- ص٣٥. يزعم أن العربية اختصت بلاحقة التنوين للتعبير عن التنكير. اهـ وهذا محتاج إلى تحرير؛ فهذه اللاحقة تكون تمييما (ٍم) وهي موجودة في الأكادية وفي بعض نقوش الأجريتية والعربية الجنوبية.

ب- ص٨٣. يجعل بعض اللغات السامية يقترض من بعض مع أنها أسرة واحدة، ناهيك عن أن بعض تخريجاته في نسبة الألفاظ غير صحيحة.

ت- ص٨٨. يزعم أن الهمداني في (صفة جزيرة العرب) يقيم تراتبا للقبائل العربية بحسب صحتها اللغوية؛ فيقول إن العرب الذين يقيمون في مدينة أو بالقرب من مدينة تفسد عربيتهم، وينطبق هذا على المقيمين في مكة والمدينة... إلخ اهـ. وأقول: إن الهمداني وصف المناطق اليمنية فقط بحسب قربها أو بعدها عن الفصحى في بعض الظواهر، أما بقية ما نسبه إليه فلم يقله.

ث- ص٩٦. يزعم أن قدامة بن جعفر ميز بين أسلوب سخيف وأسلوب جزل في كتابه نقد النثر! ولا شك في نومة المؤلف الهولندي؛ فقد شك طه حسين في مقدمة نشرة عبد الحميد العبادي لهذا الكتاب عام ١٩٣٢م، أن يكون الكتاب لقدامة أو أن يكون هذا عنوانه. ثم ثبت أن عنوان الكتاب الصحيح (البرهان في وجوه البيان) وأن مؤلفه إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، وحققه أولًا أحمد مطلوب وزوجته خديجة الحديثي في بغداد عام ١٩٦٧م، ثم حققه المرحوم حِفني محمد شرف في القاهرة عام١٩٦٩م.

ج- ص٩٧-٩٨. يزعم أن سيبويه في (الكتاب) قدم وصفا كاملا للعربية ولم يشر إلى الفارسية قط! والصحيح أن سيبويه ذكرها في أربعة مواضع: باب الأسماء الأعجمية ٣/٢٣٤-٢٣٥، وباب ما كان من الأعجمية على أربعة أحرف وقد أعرب فكسرته على مثال مَفاعِل ٣/٦٢٠-٦٢١، وباب ما أعرب

من الأعجمية ٤/٣٠٣-٣٠٤، وباب اطّراد الإبدال في الفارسية ٤/٣٠٥-٣٠٧.

ح- ص١٠٢. يبالغ في أعداد المتكلمين ببقايا اللغات الست الواقعة بين اليمن وسلطنة عمان، وأن تلك اللغات جميعا غير مفهومة تماما لمتكلم العربية! والصحيح أنها غير منفصلة وأن المتكلم بواحدة منها يستطيع أن يفهم كثيرا مما يقال بالأخريات وكذلك يستطيع متكلم العربية.

خ- ص١٠٦. يذكر أن التقديرات العادية! لمتكلمي البربرية في المغرب ما بين ٤٠-٤٥٪ وفي الجزائر ٣٠٪ وفي تونس ٥٪ وفي ليبيا ٢٥٪! وأقول: هذه التقديرات العادية ألا يفترض أن تقوم على إحصاء سكاني حتى لا تتهم بالمبالغة؟

د- ص١٢٢. أورد جدولًا لسوابق الجهة في اللهجات العربية الحديثة غير دقيق؛ فقد أسقط الهاء والحاء من المصرية، وأسقط شا، وبا، وعَد من اليمنية.

***

رابعًا: قواعد اللهجات العربية الحديثة، تأليف كرستن بروستاد، ترجمة محمد الشرقاوي، المجلس الأعلى للثقافة بمصر، ٢٠٠٣ (٣٢٨صفحة).

لم يصدره المترجم بمقدمه بل ترك المؤلفة تبدأ مقدمتها بنفسها، ثم تتوالى فصوله العشرة وفي نهاية كل فصل تلخيص لأهم نتائجه.

من الواضح أن المؤلفة بذلت جهدا كبيرا في تأليفه؛ فقد كان في الأصل أطروحة دوكي (انظر ص٣٢١) مستفيدة من الأبحاث اللهجاتية من أواخر القرن

التاسع عشر حتى العقد الأخير من القرن العشرين، إضافة إلى ما كتبه المستشرقون عن نحو الفصحى.

تقوم فكرة الكتاب على أن بين العرب لغة مشتركة هي العربية الفصحى بالإضافة إلى اللهجات الحديثة التي تجمع بينها ظواهر صرفية ونحوية مشتركة ليست بالقليلة. ولا نريد أن نعرض لفصول الكتاب العشرة، بل يكفينا أن نشير إلى أولها وآخرها. فالفصل الأول يدرس: علامات التعريف والتنكير والتحديد والتفريد، وتعليم النكرة المحددة، وأداة النكرة المحددة (شي)، والتنوين بوصفه علامة نكرة محددة، المبتدأ الذي يذكر لأول مرة، ويقف وقفة متأنية مع اللهجة المغربية. وأما الفصل الأخير/ العاشر فيدرس أنواع الجملة، وهو أكبر الفصول حجمًا، إذ يجاوز ثلث حجم الكتاب (صص٢٧٧-٣١٢)، والعنوان يوحي تماما بما فيه. يلي ذلك خاتمة تحاول أن تستخلص أبرز الظواهر في اللهجات الأربع المدروسة.

لا شك في قيمة هذا العمل وفي ضخامة الجهد الذي بذلته المؤلفة الدانمركية الأصل، ومع ذلك فإن لنا عليه ملاحظات تدور حول اضطرابها في المنهج وفي إجراءات الدرس؛ فقد ذكرت (ص٦) أنها ستدرس قواعد لهجات أربع: السورية والمصرية والمغربية والكويتية، مع تطبيق للنحو الوظيفي معتمدة على المقاصدية وتحليل الخطاب، وأن دراستها ستكون مقارنة (تقصد تقابلية) وتذكر (ص١٥) أن المقارنة (= المقابلة) بين أكثر من لغة ووصف لا يعطي نفس التركيز على الظاهرة الواحدة! وتقول (ص١٦) إن كمية المادة المجموعة ونوعيتها تعجز عن أن تفي بمتطلبات هذا التحليل المقارن! وتذكر (ص١٧) أن الدراسة تقوم على

مادة من لهجات عربية حية منطوقة، في أربع مناطق مختلفة، ولكنها لا تمثلها تمثيلا أمينا!... وأن كلمات من مثل العامية المغربية والعامية السورية لا تعرب عن الوضع اللغوي القائم فعلا! (ومثل ذلك في صفحتي١٨و١٩) بل إنها بعد ذلك تقول: لهجة حلب، لهجة دمشق، لهجة ريف سوريا!

وبما أن المؤلفة تدرس نحو لهجات حية منطوقة فإن المنهج الوصفي أفضل منهج لدراستها، وهذا لا يتناقض مع الاستفادة من المقاصدية والنحو الوظيفي، لكنها تخرج أحيانا إلى المقابلة بالفصحى، وتارة إلى ادعاء التاريخية! لا اعتمادا على نصوص بل ارتكازا على الظن الذي لا يغني من الحق شيئا.

ص٣٢٠. "ويدلل استخدام اللهجات الشيعية والدرزية لشين النفي على أن تلك السمة كانت مستخدمة في مصر الفاطمية قبل هجرة تلك الجماعات من مصر"!

وهذا الخلط في المناهج والإجراءات لو اقترف بعضه لغوي عربي الوجه واليد واللسان ما رحمه أحد، ولكن للساني الأمريكي-والدانوكي بالتبعية- رب غفور كما قال عروة الصعاليك. ولعل المؤلفة شعرت بعدم التجانس في بعض القواعد، لذلك كانت تقوم في كل فصل بإفراد حيز خاص للمغربية، وحسنا فعلت.

وما قدمناه لا ينفي أن في الكتاب آراء ثاقبة ومعالجة لظواهر مألوفة لدينا نحن العرب، لا نلتفت إليها ولا نحس أنها تستحق الدراسة. لكن ذلك لا يعني الإشادة الدائمة به. أذكر أن إحدى الطالبات أعدت رسالة ماجي عن (ظواهر) محددة في لهجة فيفا، فأخذ عليها أحد المناقشين أنها لم ترجع إلى هذا العمل

وكان يمكن أن تفيد منه! مع العلم أن الظواهر التي درستها الطالبة الفيفية ليست مما درسته الباحثة الأجنبية أصلا، فتأمل!

***

ولنقابل ذلك بباحث عربي درس النظام الصوتي في لهجة حية منطوقة مطبقا المنهج الوصفي بحذافيره، من حيث اختياره لهجة واحدة فقط دون خلط بأخرى، في زمن محدد، في مكان محدد، في صيغة محددة، معتمدا على الدراسة الميدانية المباشرة، مستفيدا من التسجيل الصوتي والمقابلات الشخصية وتحليل المادة في المعمل الصوتي، ثم بعد ذلك يأتي التصنيف والتقسيم. ولم يخلط بين المناهج إطلاقا. وإذا عنت له ملاحظة من قبيل (الشيء بالشيء يذكر) ذكرها في الهامش حتى لا يخدش المنهج. ومع هذا كله لم يسلم من اعتراض المناقشين أنه لم يذكر أصل الصوت الفلاني والصوت العلاني عند القدماء! ولم يسلم فيما بعد ممن كتب تقريرا عن الرسالة، في قسمه الذي عُيِّن فيه أنه أخل بالمنهج الوصفي في هوامش عمله! إذ ذكر فيها لهجات عربية قديمة وحديثة ليست في العنوان! وأنه لم يجد ما يقوله فمراجعه لم تتجاوز الستين! فانظر عزيزي القارئ إلى الفرق في تمييز الأشقر على الأسمر. وحسبنا الله ونعم الوكيل!

نسأل الله أن يغفر لنا زلات أقلامنا وأن يرشدنا إلى الصواب دائمًا.